الفصل الأول

التاريخ:المفهوم والمحتوى

مفهوم التاريخ

مراحل التاريخ

علم التاريخ

مكانة علم التاريخ بين العلوم الأخرى

موقف المؤرخ من التاريخ

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول
التاريخ: المفهوم والمحتوى

مفهوم التاريخ:

اجتهد المؤرخون القدامي والمحدثون في تعريف التاريخ، وقدموا آراءهم مدعمة بوجهات نظرهم، كل يحاول أن يدلي بدلوه في هذا المجال، لكن المؤرخ الحديث يجد نفسه أمام كم هائل من الآراء والتعريفات والاصطلاحات وعليه أن يحدد موقفه تجاهها.

إن محاوله صادقة للتعريف بالتاريخ لا بد وأن تخرج بالمؤرخ إلي مجالات أرحب وأفاق أوسع ليحرر نفسه من أغلال وإطارات وضعها الإنسان يحدد به مكاناً معيناً وزمانا بذاته يربط بها المؤرخ نفسه، ومع ذلك لا بد لنا من أن نضع أمام الباحثين تجربة الأجيال السابقة مع اجتهادنا في زماننا بما يمليه الفارق الزمني من إضافات ارتبطت بالتغيرات الجوهرية التي تفرض نفسها علي الواقع التاريخي.

والتاريخ دون شك هو حياة الشعوب، ومن ثم فهو نبض حى يتجدد بتجدد حياة المجتمعات، وهو يسجل تفاعل الإنسان مع بيئته، بما يتضمن ذلك من عصارة فكره ونتاج تجاربه وتناغمه مع ما حوله من ظواهر وما يتجدد حوله من ظروف وملابسات.

ومع اكتمال العقل البشري، ونضوج الفكر الإنساني، بدأت النهضات الحقيقية لتاريخة، حين وعي الانسان وارتقي من مراحل جمع الطعام والبحث عنه إلي مراحل إنتاج الطعام والاستقرار وإقامة القري والمدن وصولاً إلي قيام الدولة ومن ثم كان ظهور الحضارة البشرية.

والتاريخ سجل ناطق بالأحداث الي عاشها الإنسان منذ أن بدأ حياته علي الأرض، وإذا كان التاريخ كلمة فهو يعني البداية لأن بداية كل شئ عقلي كانت الكلمة، وبالكلمة المسجلة المدونة بدأ تاريخ الإنسان.

يقول نوح كريمر: إن التاريخ يبدأ في سومر وجعل ذلك عنواناً لكتابه: History Begins at Sumer والكتاب في تاريخ العراق القديم ويتفق معه المؤرخ الانجليزي Arnold Toynbee في كتابة: A Study of History إذ يقول: المتخصص في تاريخ العراق القديم وبالذات في التاريخ السومرى هو أحسن المتخصصين في التاريخ ذلك أنه بإمكانه أن يمدنا بمعلومات عن بداية كل شئ في تاريخ الإنسان وعن الأصول والأوائل في كل فن من الفنون وهو بهذا يقدم إجابة مقنعة ترضي الباحثين وتجيب عن سؤال الإنسان الدائم في بحثة عن الأوائل في تاريخ الحضارة (١)

وتأتي تساؤلات صمويل نوح كريمر التي هي في واقع الأمر تساؤلات كل باحث عن الأصول التاريخية لنشأة الحضارة الإنسانية، وهي بالإضافة إلي ذلك تعين في تعميق التعريف بمفهوم التاريخ فيقول: إن سؤال الإنسان الدائم بل إن السؤال الملح هو: من هم الأوائل في تاريخ الحضارة البشرية. ويطرح صمويل نوح كريمر أسئلته كالتالي:

= ماهي أول أفكار الإنسان الأخلاقية؟
= ما هي أفكاره الدينية؟
= ما هي آراؤه السياسية؟
= ما هي فلسفته الاجتماعية؟
= كيف كانت تواريخه الأولي؟
= كيف كانت أساطيرة الأولي، ملاحمه، أناشيده؟
= كيف صاغ أول عقد قانوني؟
= من هو أول مصلح اجتماعي؟
= متي كان أول تحصيل للضرائب؟
= من هو أول مشروع قانوني؟

(1) S. Noah Kramer, History begins at Sumer p. 13

= متي كان أول اجتماع عام؟ وماذا كان هدفه؟

= كيف كانت مدارس الانسان الأولي؟

= كيف كانت مناهجها؟

= ومن هم تلامذتها؟

ويري نوح كريمر أن المتخصص في التاريخ السومرى هو أقدر المتخصصين علي الإجابة علي تلك الأسئلة لأنه يقابل ويصادف إجابات لها خلال دراسة ومناقشته للنصوص القديمة المسجلة علي ألواح الطين المكتوبة بالخط السومري. (١)

إن الاجابة علي تلك الاسئلة تمكن الدارس من التوصل الي نتيجة مفادها أن التاريخ يعني حياة الإنسان علي الأرض منذ بدأ التدوين سواء في سومر بالعراق القديم حيث دون مراحل حياته بالخط المسماري أو في مصر القديمة التي اخترع فيها الانسان الكتابة المصرية القديمة المدونه بالهيروغلفية أي المقدسة.

ولنا أن نتساءل هل يبدأ التاريخ بظهور أول نظام سياسي مستقر أو بقيام الحكومة الأولي في حياة المجتمعات؟ أو أن التاريخ يبدأ بقيام أول مجتمع بشري منظم سواء في شكل أسرة كبيرة أو قبيلة أو قرية أو مدينة، ثم من مجموع تلك الأسر والقبائل واللقرى والمدن قامت الدولة الأولي في تاريخ الإنسان؟

وهل التاريخ يعني نشأة الإنسان وتطوره مرتبطا بماضيه بمعني أن التاريخ يدرس حوادث الماضي ولا يعني بالحاضر أو المستقبل؟ ورغم ظهور تفسيرات جديدة وقياساً علي تاريخ وتجارب الإنسان يمكن أن يدرس التاريخ باعتباره أحداث الماضي من أجل حاضر أفضل ومستقبل أكثر رخاء وازدهاراً.

وهنا يؤكد كريمر أنه لكي يتسني للإنسان أن يبني مستقبلا أكثر إشراقاً وأعظم تطوراً من حاضره يتوجب عليه دراسة الماضي بكل أبعاده وتجاربه ومشكلاته وقضاياه، وما جرى من حروب وخلافات ومنازعات وماشهده الانسان من ظواهر طبيعية متغيرة وهجرات سليمة أو عدائية ليخرج من ذلك كله بما يجعله يؤمن

(1) Samuel noah Kramer. History begins at Sumer. pp 13.14.

حاضرة القريب ويعد لمستقبل أفضل.

وقد استطاع الإنسان خلال فترات تاريخه الطويل أن يسجل تلك الأحداث ليجعل منها فصلاً رائعاً في كتاب يشفي غليل للباحثين عن الحقيقة ويعينهم علي التوصل إلي فهم أفضل لتاريخ البشرية.

والتاريخ يمثل المعاناة التي لاقاها العقل البشري الذي مارس كل أنواع التجارب مما يجعل المؤرخ يقف أمامها حائراً ذلك أنه مهما حاول استقراء الماضي أو استرجاع أحداثه، ومهما بذل من جهد في تخيلها أوتصورها فإن المعاناة الحقيقية للإنسان ستظل أكبر من أي تصور قد يرقي إليه فكر المؤرخ وإحساسه.

إن المؤرخ الانجليزي Arnold Tounbee صاحب نظرية التحدي والاستجابة حاول أن يتمثل معاناة الانسان فصاغها علي شكل تحديات عنيفة واجهها الإنسان القديم في كل ما كان حوله من ظلام وبرد وحيوانات متوحشة وطوفان وزلازل ومجاعات إلي غير ذلك من الظواهر الطبيعية أو حروب ودمار من صنع الإنسان فتكون مجابهة الإنسان لذلك كله بالاستجابة.

إن نظرية التحدي والاستجابة Challeng and Response التي وضعها Toynbee تؤكد مدي فهم هذا المؤرخ لتفاعل الإنسان مع بيئته، والتحدي لم يكن في كل الأحوال سلبياً بمعني أن يأتي ذلك التحدي بالضرر علي الإنسان، كما أنه ليس بالضرورة أن تكون الاستجابة سلبية فحين عرف الإنسان طوفان الأنهار كانت الاستجابة لذلك بالتفكير في إقامة السدود، وحين تمثلت التحديات في الحروب والدمار، بدأ الإنسان يفكر في السلام، وحين كان التحديات متمثلة في الجوع فكر الإنسان في البحث عن طعام، وحين كانت متمثلة في التجول والترحال كانت مجابهة الإنسان لذلك بالبحث عن الاستقرار ومن ثم كان لتلك النظرية دورها في فهم تطور البناء الحضاري للمجتمعات البشرية .

ويري Toynbee: أن الفكر التاريخي فكر نسبي: Relative ،كما يرى أن دراسة

التاريخ في أي مكان وفي أي مجتمع شأنها شأن أية أنشطة اجتماعية أخري يحكمها عاملان الزمان والمكان. وفي العالم الغربي الحديث فإن الذي يتحكم فيها ويتسيد عليها هما مؤسستان الأولهما النظام الصناعي والديمقراطية، الأولي اقتصادية، والثانية سياسية، وتأتي سيادتهما علي المجتمع الغربي من أنهما يجدان الحلول لكثير من مشكلاته وأن المجتمع الغربي يجد فيهما الخلاص.

ويضيف: إن وجود هذين النظامين يؤكدان علي القوة الخلاقة لدي الأجداد وأن الأبناء يعيشون تحت ظلالهما ويظهر تأثيرهما جلياً في كل عمل أقدم عليه المؤرخون. (١)

مراحل التاريخ:

ينقسم التاريخ اصطلاحا الي مراحل أساسية، هي في واقع الأمر تقسيمات نظرية تسهل علي الباحثين التخصص والدراسة، وتضم هذه التقسيمات التاريخ القديم الذي يشمل تاريخ ما قبل التاريخ، والعصور التاريخية في الشرق حيث يتضمن ذلك التقسيم تاريخ الشرق الأدني القديم ، وتاريخ الشرق الأقصي القديم، وتدخل في هذا تخصيصات كثيرة منها تاريخ المصريات، والتاريخ السومري، والأشوريات، والبابليين بالإضافة إلي تاريخ الهند والصين وتاريخ إيران القديم

أما في الغرب فيتضمن تاريخ اليونان القديم، وتاريخ الرومان القديم هذا بالاضافة إلي دراسة اللغات القديمة، والآثار القديمة ويأتي بعد ذلك التاريخ الوسيط ويشمل المرحلة المتوسطة في التاريخ في أوروبا والشرق الأدني ثم التاريخ الاسلامي الذي يتبعه التاريخ الحديث والمعاصر

وهذه التقسيمات علي كل حال تقسيمات نظرية تقبل التعديل والاضافة وذلك بالرغم من استمرارها بين الباحثين والمشتغلين بالتاريخ ، وسوف يكون

---

(1) Toynbee, A study of History vol. I. 1-2

obeikandl.com

النموذج الذي نطبق عليه هذه الدراسة هو مصر وتاريخها القديم.

تتفق المدارس التاريخية علي التقسيمات القائلة بما قبل التاريخ Pre History وما قبيل التاريخ Proto Hlistory ثم العصر التاريخي Historical Age ويبدأ العصر التاريخي في مصر بقيام أول نظام سياسي مستقر، وهو ما يسمي اصطلاحاً بالعصر الشينى، ويشمل الأسرتين الأولي والثانية المصريتين ويلي ذلك عصر الازدهار الحضاري والاستقرار السياسي وهو ما يسمي تاريخيا بعصر الدولة القديمة أو عصر بناة الأهرام، ويلي ذلك في تقسيمات التاريخ المصري القديم عصر الفوضي والاضمحلال الأول أو عصر الانتقال الأول وهنا لا بد من وقفة لتسجيل بعض ما شهدته مصر من أحداث في ذلك الوقت وكيف يمكن أن يعقب عصر الاستقرار السياسي والازدهار الحضاري عصر من الاضمحلال والسقوط والفوضي وهنا يجب أن نطرح الأسئلة الآتية: وما هي العوامل التي أدت إلي ذلك، وما هي تلك الظروف التي أججت في نفس المصري الثورة لتكون أول ثورة اجتماعية في تاريخ الإنسان، يوم يتمرد الفلاح المصري ويرفض الاعتراف بسلطة الملك الذي لا يستطع أن يوفر له الأمان في حياته اليومية ولا يستطيع أن يحمي حياته وحريته في كنف قوت يومه، ثم ما هي النتائج التي ترتبت علي ذلك ؟.

وبعد عصر الانتقال الأول يأتي عصر جديد من الاستقرار السياسي ذلك هو عصر الدولة الوسطي، وهنا تطبق نظرية ابن خلدون التي تقول: إن الحضارة الإنسانية تبدأ وليدة ثم تنمو وتكتمل إلي أن تصل إلي مرحلة النضوج وهنا يأتي دور أصحاب هذه الحضارة في تعريض قمتها وترسيخ جذورها لتستقر علي القمة أطول فترة ممكنة فإذا هرمت تلك الحضارة وشاخت دب التفكك في أوصالها وتمزق بناؤها السياسي والاجتماعي واهتز كيانها الاقتصادي فتصدعت، فما بالنا إن كان ذلك كله في داخل تلك الحضارة، إذن يكون النذير بانهيارها وزوالها. (١)

وتستمر الدولة الوسطي في حكم مصر الموحدة المستقلة ليتبع ذلك عصر

---

(١) انظر ابن خلدون: المقدمة ص ص ٤: ٩

آخر من الفوضي والاضمحلال أو عصر الانتقال الثاني وفيه تتعرض مصر لغزو الهكسوس، وتعيش فترة من التمزق السياسي والفوضي السياسية والضعف الاقتصادي إلي أن يبرز فيها محرر ومخلص للبلاد من الفوضي والفساد لتعود لمصر مكانتها في الشرق الأدني القديم فكان كامس ومن بعده أحمس وشعب مصر من ورائهما ليتصروا علي الهكسوس ويعيدوا لمصر كرامتها وحريتها ولتقوم الدولة الحديثة في مصر القديمة ولتبني مصر أول امبراطورية يعرفها التاريخ يكون لمصر فيها سيادة العالم وريادته في تلك العصور السحيقة.

ويأتي علي مصر عصر آخر من التفكك تشهد فيه أنواعاً من الحكم الأجنبي الليبي والنوبي واليوناني مما يوضح الضعف السياسي الذي عانت منه الأسر الحاكمة في مصر في تلك الفترة المعروفة بالعصر المتأخر.

ويقسم المؤرخون الأسرات المصرية إلي ثلاثين أسرة تنتهي بدخول الأسكندر الأكبر لتلتقي فيها حضارة الشرق وحضارة الغرب ويمتزج الفكر الإنساني فيها لتظهر حضارة جديدة وعصر تاريخي جديد.

والتاريخ البشري ليس مجرد سرد للأحداث الهامة وغير الهامة، وليس مجرد تسجيل لظواهر طبيعية، إنما التاريخ الحقيقي هو نتاج العقول البشرية يقف دليلاً علي وجودها، ومرآة لوجدانها فمن أعظم ما يدل علي عمق الفكر عند الإنسان القديم وخاصة في مصر حرصه علي البحث الدائم عن الحقيقة الأولي في حياة الإنسان وهي الموت، إن الميلاد ميلاء أي شئ أسهل في الاستيعاب والاقتناع من الموت، وعلي الرغم من أن الإنسان منذ بدء الخليقة وإلي أن يرث الله الأرض ومن عليها سيظل حائراً مكتوف الأيدي متضائلاً أمام تلك الحقيقة الكبري ومع التقدم الهائل في التقنيات الحديثة سيظل الإنسان عاجزاً عن الوقوف علي كنه الموت وحقيقته.

والإنسان المصري القديم وضع لذلك أعظم ملحمة في تاريخة بل يمكن القول إنها أعظم الملاحم في تاريخ الفكر الإنساني ذلك هو كتاب الموتى

Book of The Dead وهذا الكتاب يحوي نصوص المقابر المصرية القديمة أو بالاحري النصوص الجنائزية وهو يصور المصري القديم الذي استطاع التوصل إلي الحقيقة القائلة بأن الروح لا تفني ولا تموت .

The soul is an etrnal being which under no curcumistances could die. (1)

ومنذ المراحل التاريخية الأولي للمصري القديم توضح النصوص المحفوظة عنه مدي قناعته وايمانه بالبعث والخلود وأن ثمة مكان ما ينعم فيه الإنسان الخير بالسعادة الأبدية .

وعلي أية حال فإن البحث عن الخلود من العلامات المميزة لتاريخ الفكرالديني لدي الشعوب القديمة فملحمة جلجامش في العراق التي تعبر عن مستوي راق من الفكر البشري والتي تسبق ملحمتي هومير الألياذة والأوديسا بأكثر من ألف وخمسمائة عام تمثل مرحلة هامة في عمر الفكر الانساني، ذلك أن جلجامش هو الباحث عن الحقيقة، الباحث عن الحياة، الباحث عن الخلود، والخلود يمثل الغاية النهائية عنده (٢).

ولقد أثارت هذه القضية كثيرين في المنطقة حتي أن ملحمة جلجامش قد ترجمت إلي لغات عديدة منها الهندوأوروبية والحيثية والحورية وحتي في عصور لاحقة وجدت ترجمات لها في اللغة الكنعانية والفلسطينية .

إن هذه الملحمة كما يراها علماء الآثار مثل هنري فرنكفورت تمثل العقلية العراقية القديمة دائمة الخوف من المجهول، ذلك الخوف الذي انتجته البيئة العراقية كثيرة التقلبات التى حين تهاجم الإنسان لا تبقي ولا تذر وخاصة تلك الطوفانات التي تميزت بها المنطقة .

إن جلجامش الملك أو الشخصية الأسطورية تمثل تلك العقلية الخائفة المترددة الباحثة عن الشهرة والسلطة والثائرة علي القوانين التي تفرق الأحباب والأصدقاء،

(1). Sir wallis Budge, Book of the Dead, London 1969.

(٢) . رشيد الناضوري. التطور التاريخي للفكر الديني ص ١٢٠

وتحتم البحث عن حقيقة الموت. (١).

هذا بالإضافة إلي ما قدم المصريون القدماء في هذا المجال مما يعد أعظم دليل علي التفاعل الفكري بين الإنسان والظواهر الكونية التي تحيط به.

والتاريخ هو العمر العقلي للإنسان ممثلاً في كافة المظاهر الحضارية والعمرانية التي خلقها علي الأرض، وليس معني ذلك أن ينسي المؤرخ تتابع الأحداث أو ترتيبها الزمني أو الأشخاص المؤثرين فيها أو العصور السياسية التي صنعت فيها تلك الأحداث.

علم التاريخ:

قضية طرحت للمناقشة منذ قرون طويلة، وتجددت في بداية هذا القرن، تدور محاورها حول التاريخ من حيث كونه علماً من العلوم، وقد أسهم العلماء المسلمون في ذلك إسهامات عظيمة عرضوا فيها لآرائهم حول التاريخ الذي لم يكن من العلوم العقلية، ولا من العلوم النقلية بل يأخذ مركز الوسطية بينهما ومن ثم أصبح له ذاتية مستقلة أخذ ينمو ويتطور علي مر العصور كما أخذت أبوابه تتسع وتتنوع ليخرج من مجرد كونه سردا لأحداث مضت أو تاريخ للعالم منذ أقدم العصور، إلي أقسام تخصصية اتقن فنونها المؤرخون المسلمون ومن بعدهم مؤرخون العالم.

وكان الاستاذ J.B. Bury قدأعاد هذه القضية إلي الأذهان بحيث شغلت المشتغلين بالتاريخ حين أعلن في إحدي محاضراته بأن التاريخ علم لا أكثر ولا أقل وكان ذلك في مطلع هذا القرن وبالتحديد في عام ١٩١٣م. (٢)

وتبع هذه الفكرة في منتصف القرن سينوبوس الذي أكد ذلك بقوله: التاريخ

---

(1) N. K. Sandars, The Epic of Gilgamish. pp.11.12

(٢) هرشو. علم التاريخ، ترجمة عبد الحميد العبادي، القاهرة، ١٩٣٧، ص١.

علم مـا في ذلك ريب، لأننا نستطيع أن نطلق كـلمة علم علي كل مـجمـوعة من المعارف المحصلة عن طريق منهج وثيق للبحث عن نوع واحد معين من الوقائع، فهو علم الوقـائع التي تتصل بالأخـبار عن الناس في مـجتمع خـلال توالي الأزمنة في الماضي (١)

وأمام هذه القضية انقسم المحدثـون علي أنفـسهم فمنهم من تحمس لها ومنهم من سـفه آراء القـائلين بها، أمـا الفريق الأول فـبني رأيه علي أن المنهج المتبع في البحث التـاريخي يرقي به إلي أن يكون علماً قائمـا بذاته، وأما الفريق الثاني فـقد عارض هذه الفكرة علي أساس أن مادة التاريخ تخـتلف عن مادة العلوم الطبيعية أو التجريبيـة، ولعله من المفيد هنا أن نذكر رأي الاقتصادي الانجليـزي جيفونز jevons صاحب كتاب Principles of Science الذي قال: من السـخف أن نفكر في التاريخ علي أنه علم بالمعني الصحيح.

لقد فجر الأستاذ بيوري Bury خلافاً حاداً بين المؤرخين والعلمـاء والفلاسفة وصل إلي حد الخصومة، التي يمكننا أن نقول أنها علي كل حال أسهمت في ظهور عدد كبير من الآراء التي أفادت ولا شك البحث التاريخي كما أفادت الباحثين فيه.

واذا كان هناك من عـرف العلم علي أنه: المعـرفة المنظمة المبـوبة المقننة، إذن فمن هذا المنطلق يكون التاريخ علماً من العلوم.

والتاريخ من حيث هو علم يختلف أصلا عن العلوم الفيزيقية إذ أنه ليس علم معاينة أو تجربة لكنه علم نقد وتحقيق، وكما يقول المؤرخ الألماني درويسن J.S. Droy-son إن التاريخ لا يبحث فقط في الأشـياء التي مضت وانقطع وجودها، ولكن في الأشياء التي لا تزال موجودة، سواء أكانت روايـات عما وقع أم بقايا أشياء وجدت أم نتائج أحداث حدثت.

ويبقي السـؤال هل يمكن للمـؤرخ أن يضع نفسه في عداد العلماء التـجريبيين

---

(١) عبد الرحـمن بدوي، النقد التاريخي ، الكويت ١٩٧٧، ص٥. وسينوبوس C. Seignobs الاستاذ المؤرخ الفرنسي قد اشترك مع لانجلوا C.Y. Langlois في وضع كتاب Introduction aux Etudes Historiques.

باعتبار أن التاريخ وهو مجال عمله فرع من فروع العلم والمعرفة؟ وهل يمكن أن يكون التاريخ علماً من العلوم شأنه في ذلك شأن العلوم التجريبية كالطبيعة والطب والفلك والنبات والكيمياء وغيرها؟

نعود فنقرر أن فريقاً من العلماء ذهبوا إلي القول بأن التاريخ لا يمكن أن يكون علماً من العلوم لأنه يعجز عن إخضاع الوقائع التاريخية لما يخضع له العلم من المعاينة والمشاهدة والفحص والاختبار والتجربة وبذلك فلا يمكن أن نستخلص من دراسة التاريخ قوانين علمية يقينية ثابتة علي نحو ماهو حاصل في العلوم التجريبية.

ومما يبعد صفة العلم بهذه الصورة عن التاريخ أي كونه علما تجريبيا قيام عنصر المصادفة وتدخل عنصر الشخصية الإنسانية وحرية الإرادة مما يهدم الجهود الرامية إلي إقامة التاريخ علي أسس علمية. (١)

وإذا كنا لا نستطيع أن نعد التاريخ من العلوم التجريبية فليس في إمكاننا أن ننفي عنه صفة العلم؛ وفي هذا السياق يري هرنشو أنه علم نقد وتحقيق، وبالتالي فهو ليس علم تجربة واختبار وهنا يعقد مقارنه بين علم التاريخ وعلم الجيولوجيا فكلاهما يدرس الإنسان علي الأرض ويتفاعل مع المخلفات البشرية كأدلة وأسانيد لما يتوصل إليه من استنتاجات. (٢)

ومهما يكن من أمر فقد سبق المؤرخون المسلمون في إثارة هذه القضية ومناقشتها، وقد توصلوا فيها إلي آراء عظيمة لا بد وان تكون هي الأصل الذي تفجر عنه اهتمام المحدثين بإعادة النظر فيها وطرح آراء جديدة حولها هدفاً إلي الوصول إلي نتائج جديدة تثري عملية التفكير التاريخي بوجه عام.

مكانه علم التاريخ بين العلوم الأخري:

القضية إذن ومنذ عصور قديمة هي تحديد مكانة التاريخ بين العلوم، هل هو

---

(١) قارن حسن عثمان، منهج البحث التاريخي، ص ١٦

(٢) انظر هرشو، علم التاريخ، ترجمة عبد الحميد العبادي. ص ص ٣: ٤

علم أم غير ذلك؟

يقول الشمس الباعوني الدمشقي في كتابه تحفة الظرفاء في تاريخ الملوك والخلفاء: إن التاريخ علم سامية شرفه، عالية بين الأنام غرفه، وفيه ما فيه من المنافع، حتي لقد قال الإمام الشافعي في خبر قد صح عنه نقله: من حفظ التاريخ زاد عقله.

ووصفة البرزالي فقال: هو من أحسن العلوم وأشهاها، وأجل الفوائد وأبهاها، وأكمل المحاضرات وأزهاها، لأنه سبيل إلي الاعتبار ومنهج يعين علي الاستبصار، وتحفة تريك من مضي من الأمم عياناً، ونزهة تشرح للمطالع فيه قلبا وتبسط لساناً.

وعرفة ابن حزم بأنه علم الأخبار، بينما يفرق ابن جماعة بين علم التاريخ وعلم الطبقات.

ويقول الشمس السخاوي في كتابة التبر المسبوك: إن علم التاريخ فن من فنون الحديث النبوي، وزين تقر به العيون حيث سلك فيه المنهج القويم المستوي، بل وقعه من الدين عظيم، ونفعه متين في الشرع، بشهرته غني عن مزيد البيان والتفهيم إذ يعلم به أهل الجلالة والرسوخ ما يفهم الناسخ من المنسوخ . (١)

ويطلق المقريزي علي التاريخ اصطلاح علم الأخبار في كتابه الخطط فيقول: به عرفت الشرائع التي شرعها الله وحفظت سنن أنبيائه ورسله ودون هداهم الذي يقتدي به من وفق الله الي عبادته. (٢)

وبواسطة علم الأخبار استطاع بنو البشر معرفة ما دونوه من العلوم والصنائع وتأتي لهم ما غاب عنهم من الأقطار الشاسعة والأقطار النائية وغير ذلك مما لا ينكر فضله.

وذهب أهل الأدب إلي القول بأن التاريخ سواء اعتبره أهله علماً من العلوم فهو دون شك فن من الفنون ويؤكد هذا المؤرخون المسلمون، فيري الكمال

---

(١). السخاوي :التبر المسبوك . ص ١١

(٢) المقريزي :الخطط حـ ١ ص ٤

الأدفوي: أن التاريخ فن من الفنون يحتاج إليه وتشديد يد الضنانة عليه اذ به يعرف الخلف أحوال السلف . .(١)

واعتبره الموفق أبو الحسن الخزرجي صاحب تاريخ اليمن فناً أهملة الناس، مع شدة احتياجهم إليه، وتعويلهم في كثير من الأمور عليه.

وتناول المؤرخون المسلمون تعريفات التاريخ فقالوا: إن التاريخ في اللغة يعني الإعلام بالوقت يقال أرخت الكتاب وورخته أي بينت وقت كتابته. (٢)

ويقول أبو الفرج قدامة بن جعفر في كتاب الخراج: تاريخ كل شئ آخره فيؤرخون بالوقت الذي وقعت فيه حوادث مشهورة بينما يقول الصولى تاريخ كل شئ غايته ووقته الذي ينتهي إليه زمنه (٣)

ويقول الصفدي: والتاريخ للزمان مرآة، وتراجم العالم للمشاركة في المشاهدة مرقاه، وأخبار الماضين لمن عاقر الهموم ملهاة وأما عن تعريفه الاصطلاحي فهو التعريف بالوقت الذي تضبط به الأحوال، وأنه فن يبحث عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت. (٤)

وأما موضوعة فهو الإنسان والزمان، أحوالهما المفصلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة للانسان وفي الزمان.

ويقول العماد الكتاب الأصفهاني: إنّ التواريخ معتادها إما أن تكون مستفتحة من بدء نشأة البشر الأولي، وأما مستفتحة بمعقب من الدول الأخري، فلا أمة من الأمم ذوات الملل ، وذوات الدول إلا ولهم تاريخ يرجعون إليه ويعولون عليه، ينقله خلفها عن سلفها، وحاضرها عن غابرها، تفيد به شوارد الأيام وتنصب به معالم الأعلام. ويوضح العماد فضل التاريخ فيقول: لولا التاريخ

---

(١) الكمال الأدفوي. الطالع السعيد ص ٣

(٢) السخاوي الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، صص ٦،٧

(٣) السخاوي : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص ٧

(٤) الصفدي الوافي بالوفيات حـ١ ص ٤

لانقطعت الوصل، وجهلت الدول، ومات في أيام الأخر ذكر الأول، ولولا التاريخ لضاعت مساعي أهل السياسات الفاضلة، ولم تكن المدائح بينهم وبين المذام هي الفاصلة، ولقل الاعتبار بمسألة العواقب وعقوبتها، وجهل ما وراء صعوبة الأيام من سهولتها وما وراء سهولتها من صعوبتها .(١)

ويؤكد علي هذا الشمس السخاوي فيقول: أما فائدته فمعرفة الأمور على وجهها، ومن أجل فوائده أنه أحد الطرق التي يعلم بها النسخ في أحد الخبرين المتعارضين المعتذر الجمع بينهما، وزاد في ذلك فقال عن سفيان الثوري: لما استعمل الرواه الكذب استعملت لهم التاريخ، وعن حسان بن زيد قال: لم يستعن علي الكذابين بمثل التاريخ .(٢)

واما تعريفه الاصطلاحي فهو التعريف بالوقت الذي تضبط به الأصول، وأنه فن يبحث عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت، بل عما كان في العالم

موقف المؤرخ من التاريخ:

وهكذا كان للمؤرخين المسلمين موقف محدد من التاريخ من حيث ماهيته وموضوعه وتعريفه ومجالاته، لكن القول الفصل ما زال يخضع لمزيد من الدراسة، وما زال يقبل الجديد من الآراء فمن رأي أن التاريخ علم من العلوم يتحمل دون شك مسئولية هذا الاستنتاج ومن اعتبره علماً من العلوم دلل علي رأيه بما يدعمه ويقويه.

لكننا نري أن التاريخ علم في حدود ما تتيحه الدراسة المنهجية وطرق البحث

---

(١) العماد الكاتب الاصفهاني ، الفتح القدسي ص ص٤٣: ٤٤

(٢) السخاوي: المصدر السابق ص ٩

العلمي لموضوع من موضوعاته واتباع الأسلوب العلمي المقنن في دراسته، ولما كان التاريخ لا يصنع ولا ينتج في المعامل ومراكز الأبحاث العلمية فهو من ناحية أخري فن من الفنون تظهر فيه لمسات الإنسان المؤرخ الذي يخرج الصورة التاريخية وينشئ البنيان التاريخي مما يظهر أراد إم أبي أحاسيسه وانطباعاته في تفسير الأحداث ومناقشة القضايا التي يناولها.

ولنضرب مثلاً علي ذلك فنقول: إن المؤرخ المسلم وهو يكتب سيرة رسول الله ﷺ أو حين يسجل أحداث الصراع بين الشرق والغرب ممثلا في الحروب الصليبية سوف يتأثر دون شك بعقيدته ناهيك عن الظروف المحيطة به والملابسات التي تحيط كتابته ،وبنفس القدر سيكون هذا صحيحاً بالنسبة للمؤرخ المسيحي الذي يكتب تاريخاً لاوربا او يؤرخ للحرب الصليبية.

وعلي هذا فيمكن لنا أن نقول أن التاريخ مزيج من العلم والفن أو هو حلقة وصل بين العلم والفن، وأنه علم له خصائصه المميزة له عن أي علم تجريبي يخضع لمقاييس خاصة تنتهي بالباحث إلي التوصل إلي قوانين ثابتة أو لحقائق غير قابلة للتغيير، فالمعروف أن قوانين العلوم التجريبية قوانين يقينية ثابتة، وهنا يصدق القول بأن التاريخ مزاج من العلم والأدب والفن.(١)

وتحتم الدراسة أن نناقش في هذا المجال قضية الموضوعية والحياد مما يشغل بال المؤرخين في كل زمان، إذ هل من الممكن أن يصل المؤرخ إلي درجة من الموضوعية يلغي فيها ذاته ومشاعره وإحساساته وانفعالاته وانتماءاته ليتجرد في مناقشة قضية وطنية أو دينية أو ثقافية أو مبدئية تجردا حقيقيا Objectivity.

وعلي الرغم من صعوبة الوصول إلي نتائج نهائية في مناقشة قضية التاريخ بين الموضوعية والذاتية فإن عرضها هنا للدراسة وطرحها أمام الباحثين يفتح مجالا للحوار والتفاهم هدفاً للوصول إلي لقاء مشترك أو أرضية مشتركة تجمع المؤرخين حولها للتصدي والبحث والتأمل من أجل رؤية جديدة.

---

(١) فارن هرنشو : علم التاريخ. ص ٢٢.

وقد ذكرنا سابقاً أن الموضوعية مطلب صعب المنال، وإذا هدف المؤرخ إلي ذلك فعليه أن يدرك مسبقاً أنه اختار ان يسلك طريقاً صعبة، وأن عليه أن يقطع شوطاً من المعاناة والتعب المضني والبذل المستمر، والتجرد الموضوعي مع علمه مسبقاً بأنه قد ينجح في الوصول إلي مرتبة قريبة منها أو قد لا ينجح علي الإطلاق.

والمعتقد أن كثيراً من المؤرخين يشتركون في الرأي القائل بأن الموضوعية المطلقة غير ممكنة التحقيق، ذلك أن المؤرخ إنسان، والعدل المطلق فوق طاقات الإنسان إلا ما تحدده الشريعة في أمور بعينها.

والمؤرخ إنسان له دائماً آراء وأفكار وانتماءات وعواطف ومشاعر بالاضافة إلي ثقافته وتدريبة وكل هذا يلح عليه ولا يستطيع التخلص منه نهائيا حتي ولو فعل ذلك لفترة فإذا بها تعود للإلحاح عليه في فترات أخري.

وسوف تظل قضية الموضوعية قضية جدلية علي مر العصور، ولا يمكن فيما يتعلق بالتاريخ حسمها بشكل نهائي يرضي العقول النزيهة التي تؤمن بها.

ولذلك سيظل الباب مفتوحاً دائما لقبول النقد والتعديل والجرح وصولاً إلي الهدف الأسمي وهو تحقيق الموضوعية ولو علي الأقل الموضوعية النسبية التي ترتبط بالإنسان والزمان والمكان، وبينهما تقف الحقيقة التاريخية التي ستظل دائما تخضع لتفسيرات جديدة تتفق وتقدم البحث العلمي في التاريخ وظهور أدلة أو أدوات جديدة تعين الباحثين في عملهم.

إن المؤرخ كالرسام يضع إطاراً عاماً للفكرة التاريخية وفي نطاق ذلك الإطار يبدأ في وضع تفصيلات القضية التي يناقشها وهي تضارع صورة الفنان الذي يوضح ما يري توضيحه مركزاً علي جوانب معينة منها مسلطاً الأضواء علي ما يعتقد أنه الحقيقة ويقدم ما تحت يديه من أدلة وقد يحكم أو يترك الحكم لمن يأتي بعده؛ وهو في كل الأحوال يستلهم الحقيقة ويستشرف الأوضاع السابقة التي يفصل بينه وبينها آلاف السنين.

وتحاول المدارس التاريخية المحدثة التواصل مع المداس التاريخية القديمة في وضع الأسس المنهجية لدراسة التاريخ قديمه ووسيطه وحديثه، السياسي والاجتماعي والاقتصادي، الديني والمذهبي والعقدي، العام والإقليمي إلي غير ذلك من الانواع التي يمكن أن يضمها التاريخ الإنساني.

وقد استطاعت هذه المدارس علي اختلاف علمائها واختلاف مشاربهم وأهوائهم ومذاهبهم أن تنجح في الوصول بالتاريخ إلي مستوي العلم المقنن القائم علي أصول منهجية وتخليصه من إطار الأسطورة والخيال القصصى.

وإننا نعول علي المدارس الحديثة في أن تواصل عملها تحقيقا للمزيد من الرقي بعلم التاريخ أو فن التاريخ أو التاريخ علي إطلاقه ليقف علي قدم وساق في مصاف الدراسات الجادة الواعية القائمة علي منهجية العلم وأساليب التدقيق والتحقيق والتوثيق ليدخل التاريخ بذلك مصاف العلوم النقدية ذات القيمة الاجتماعية العظيمة.

وإن المسئولية الملقاة علي عاتق المؤرخين المسلمين المحدثين كبيرة وتزداد خطورة من أجل الحفاظ علي مكانة علم التاريخ وتطوير وسائل البحث فيه ليكون الهدف الأسمي هو الوصول إلي الحقيقة بأكبر قدر من الموضوعية.

obeikandl.com